

حول وصيفة
أبي تمام البغدادي

خليفة الوقيان

في عدد مارس ١٩٧٧م من " علامات في النقد " نشر الدكتور عادل الفريجات دراسة بعنوان " أبو تمام ووصياته للبحثري ". غير أن الدراسة تجاوزت الإطار الذي حدده عنوانها لتتناول أبا تمام الناقد . يقول الأستاذ الباحث عن تلك الدراسة " ارتأينا أن نقسمها إلى قسمين رئيسيين هما :

أ - مدخل إلى نقد أبي تمام .

ب - أبو تمام الناقد من خلال شعره ، واختياراته ، ووصيته للبحثري .

وسوف يقتصر حوارنا مع الباحث الكريم حول جزء من دراسته، وهو المعلنون بـ " النقد في وصية أبي تمام للبحثري " الذي يقول عنه، " إن آراء شاعرنا النقدية الصريحة تبدو أبين وأوضح في وصيته التي ساقها البحثري بعباراته الخاصة ، وهي عبارات لا تبلغ حد صفحة واحدة عثرنا بها - عثرنا عليها - في مصدرين اثنين فقط ، هما : زهر الأداب للحصري ؛ والعمدة لابن رشيق ."

يبدأ الباحث هذا الجزء من الدراسة بذكر وصية أبي تمام للبحثري ، ثم يقول : " ومن المسائل التي تثار في مناقشة هذه الوصية صحة نسبتها إلى أبي تمام، وانعدام هذه النسبة ، فقد ننكر أن أبوتمام - أبا تمام - قد ألقى بهذه العبارات حرفياً، وقد نقبل بهذه الوصية ، ولنا

في ذينك الرأيين الانكار والقبول حجج وأدلة . وأدلتنا في القبول قوية . ولكنها غير دامغة ، وأدلتنا في الانكار قوية ، ولكنها غير يقينية أيضاً . ونحن لا نريد أن نبت في هذه المشكلة الآن . وإن كنا نميل إلى أن الوصية ربما لم تقل بقضها وقضيضها على لسان حبيب ابن - بن - أوس ، وإن سقطا أو تزيدا أو تبديلا أو تحويرا ربما طرأ عليها . ولكن بذرتها الأولى ربما قيلت في توجيه البحثري من قبل أستاذة وابن جلدته أبي تمام .

ويستطرد الباحث في بيان علاقة البحثري بأبي تمام ، وتلمذته له . وينتهي إلى القول " ولهذا كله فالى أن يثبت عدم عزو هذه الوصية إلى أبي تمام نمضي فنناقشها . ونرى انها يمكن أن تقسم إلى الأفكار الرئيسية التالية :

١ - تخير أوقات قرص الشعر ، وأفضلها وقت السحر .. الخ .

ويمضي الباحث في عرض ماجاء في الوصية من توجيهات ، ومناقشتها .

ومع التقدير لجهد الباحث ، فسوف نورد فيما يلي بعض الملاحظات على دراسته .

يبدأ الباحث حديثه عن الوصية برأيين متعارضين . إذ يقول " وأدلتنا في القبول - أي قبول الوصية - قوية ، ولكنها غير دامغة . وأدلتنا في الانكار قوية . ولكنها غير يقينية . ونحن لا نريد أن نبت في هذه المشكلة الآن " .

لم يورد الباحث الحجج والأدلة التي أشار إليها لترجيح الانكار أو القبول بل أكد عدم رغبته في البت في هذه المشكلة الآن ، ثم مضى في بناء أحكامه مستندا إلى نص لم يقطع هو بصحة نسبته إلى قائله .

ويحق لنا أن نتساءل : متى يتم البت في المشكلة إذن ؟ وكيف يطمئن الباحث إلى استنباط الأحكام من نص لا يرجح صحة انتمائه إلى قائله .

ويشير الباحث - شأنه في ذلك شأن كثير من الباحثين - إلى تلمذة البحثري لأبي تمام ، الأمر الذي يعزز احتمال صدور الوصية من الأستاذ بهدف توجيه تلميذه .

تلمذة البحثري لأبي تمام :

وبجدر أن نعرض فيما يلي لقضية تلمذة البحثري لأبي تمام ، لأن تلك التلمذة ، إن صحت ، فقد ترجح - لدى بعضهم - احتمال صدور الوصية من الأستاذ إلى تلميذه ، وإن لم تصح ، فسوف يكون الاحتمال ضعيفاً ، إن لم نقل معدوماً .

أورد صاحب الأغاني ثلاث روايات عن لقاء البحثري بأبي تمام ، فقال في الرواية الأولى على لسان البحثري " كان أول أمري في الشعر ، ونباهتي اني صرت إلى أبي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل عليّ ، وترك سائر من حضر . فلما تفرقوا قال لي أنت أشعر من أنشدني..."^(١) .

وقال نقلاً عن البحثري من جهة ، وعن ابنه " أبي الغوث " من جهة ثانية ، وقد جمع الروائين لقربهما من بعض " أول ما رأيت أبا تمام أني دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتي :

أفلاق صب من هوى فأفيقا أو خان عهدا أو أطاع شفيقا

فسر بها أبو سعيد . وقال أحسنت .. وكان في مجلسه رجل نبيل
رفيع المجلس ... فأقبل عليّ، ثم قال : يافتى اما تستحي مني ؟ هذا شعر
لي تتحلله بحضرتي الخ ^(٢).

وقال صاحب الأغاني في الرواية الثالثة أن البحتري " دخل على
أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري . وقد مدحه بقصيدة ، وقصده بها .
فألفى عنده أبام تمام . وقد أنشده قصيدة له ، فاستأذنه البحتري . وهو
يومئذ حديث السن . فقال له يا غلام أتشدني بحضرة أبي تمام .
فقال تآذن ويستمتع . فقام فأنشده إياها ، وأبو تمام يسمع ويهتر من قرنه
إلى قدمه استحسانا لها . فلما فرغ منها قال أحسنت والله يا غلام . فمن
أنت . قال من طي ... الخ ^(٣).

وكان الصولي قد ذكر روايتين للقاء بين البحتري وأبي تمام ،
تذهب الرواية الأولى إلى أن اللقاء تم في حمص ، على حين تتفق الرواية
الثانية مع ما نقله صاحب الأغاني على لسان البحتري وابنه حول اللقاء
في مجلس القائد العباسي محمد بن يوسف ^(٤).

ويتضح مما تقدم أن الرواية التي تصور اللقاء الذي تم بين
الشاعرين في مجلس القائد العباسي أكثر تفصيلا واقناعا . فضلا عن
إمكان تحديد تاريخ اللقاء ، من خلال معرفة القصيدة التي قرأها البحتري .
ومعرفة مناسبتها .

أما رواية اللقاء في حمص فهي أقل اقناعا . ومع ذلك فهي
تكشف عن استواء موهبة البحتري ، بدليل إقبال أبي تمام عليه . وتركه
سائر من حضر ، وقوله : أنت أشعر من أنشدني .

ومن المرجح أن يكون البحتري قد نظم قصيدته التي قرأها

بحضرة أبي تمام " أفاق صب من هوى فأفيقا " في عام ٢٣١ هـ . أو بعد ذلك التاريخ بقليل . إذ إن القصيدة قُيِّلت بمناسبة انتصار " محمد بن يوسف الثغري " على " محمد بن عمرو الشاري " ، الذي خرج في عام ٢٣١ هـ . وكذلك ينبغي ألا يتجاوز تاريخ نظم القصيدة ذلك العام ليصبح بإمكان أبي تمام أن يستمع إليها في مجلس القائد العباسي . إذ إن أبا تمام توفي في عام ٢٣١ هـ .

وهناك شواهد أخرى تدل على أن البحثري اتصل بالقادة والوزراء العباسيين قبل ذلك التاريخ ، ومن ذلك تعزيته محمد بن يوسف الثغري بوفاة الخليفة المعتصم ، الذي توفي في عام ٢٢٧ هـ ، ومدحه الحسن بن وهب^(٥) بعد أن نكب الخليفة الواثق آل وهب في عام ٢٢٩ هـ .

وإذا كان البحثري قد بدأ يختلف إلى الحاضرة العباسية سامراء منذ عام ٢٢٧ هـ - على أبعد تقدير - وأنه أخذ يتدرج في مدح الرؤساء ، حتى وصل إلى مدح القائد الشهير محمد بن يوسف وتعزيته بوفاة المعتصم ، ومدح آل وهب . فذلك يعني أنه استطاع أن يشق طريقه دون معونة أبي تمام ، وإذا ما علمنا أن أبا تمام توفي في عام ٢٣١ هـ . أي في العام الذي التقى فيه بالبحثري تبين لنا إن الروايات التي أسرفت في تصوير احتضانه للبحثري ، وتزويده بالوصايا ، التي يوجهها الأستاذ لتلميذه لاتخلو من المبالغة . بل لعلها لاتنهض على دليل .

وقد أكد الأمدي تلك الحقيقة في قوله " أما الصحبة فما صحبه ، ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ، ولا نقله ، ولا رأى قط أنه محتاج إليه " .^(٦)

لقد نقل المتقدمون أخبارا متفرقة عن اللقاء ، أو العلاقة بين أبي تمام والبحثري وجاء المحدثون فأسرف بعضهم في تحميل تلك الأخبار ما

لا تحتمل، وبنوا على أساسها أحكاماً تحتاج إلى التمهيص. وتلك هي المشكلة.

ويحسن أن نأتي بمثال يبين مدى الاسراف في استنطاق الأخبار القليلة عن العلاقة بين الشاعرين.

يقول الدكتور صالح الأشتري في مقدمة تحقيقه لكتاب " أخبار البحثري ما نصه :

" كان توجيه أبي تمام للبحثري مخلصاً. فقد رعاه، وأعدّه إعداداً كاملاً ليحل محله، ويصبح أمير الشعر من بعده ^(٧). ويشير المحقق إلى أن مصدره في الوصول إلى هذا الرأي الخبر رقم ١٦ من أخبار البحثري للصولي. وعند العودة إلى هذا الخبر نجد نصه كما يلي : حدثني أبو الغوث يحيى بن البحثري قال : قال أبي أنشدت أبا تمام شعراً في بعض بني حميد، وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي أحسنت، أنت أمير الشعر بعدي. فكان قوله هذا أحب إلي من جميع ما حويته ^(٨).

ويلاحظ أن النص الذي استند إليه المحقق في تكوين رأيه لا يعدو - إن صح - أن يكون محض كلمات عابرة ، فيها شيء من التشجيع. فهل يصح أن نستنتج من تلك الكلمة التشجيعية أن أبا تمام رعى البحثري ، وأعدّه إعداداً كاملاً ليحل محله ، ويصبح أمير الشعر بعده.

طبيعة الوصية :

حين نتفحص التوجيهات الواردة في الوصية نجدها مخالفة كل

المخالفة لمذهب أبي تمام في النظم ، فكيف تصدر منه توجيهات لا تتفق مع منهجه . ويضاف إلى ذلك أنها ليست بذات قيمة تجيز لنا أن نعدّها نصاً نقدياً يعتد به ، فكيف يتأتى لأبي تمام الرائد في التجديد أن يضيق مفهومه للشعر بحيث يقتصر على التنبيه لتخير الأوقات للنظم بعد أن تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، والدعوة للإكثار من بيان الصبابة وتوجع الكآبة ، وأشهار مناقب الممدوح ، والاعتبار بما سلف من شعر الماضين .. الخ^(٩).

والأستاذ الباحث نفسه يختلف مع أبي تمام حول سلامة مثل تلك التوجيهات ، ولكنه يلتزم الاحتمالات لصدورها منه في مثل قوله : " وربما كان أبو تمام قد أشفق على البحثري ، وهو مازال في سن قرزمة الشعر ، وبدايات الإبداع من الركوب المركب الخشن الذي ركبه هو ، فأرشده إلى ما يوصي الناس آنذ ، حتى إذا استمكن ورسخ شق الطريق التي يراها مناسبة . وربما كان البحثري . وهو احتمال آخر قد سمع في يفاعته أقوال أبي تمام ، ولكنه لم يتذكرها بحرفيتها في آخر عمره الطويل ، فأنسى بعضها وتذكر بعضها ، فأملى منها ما أسعفت به الذاكرة . وهناك احتمال ثالث أشرنا إليه من قبل ، وهو أن تكون الوصية بأسرها قد انتحلت على أبي تمام من قبل أنصار البحثري " .

وفيما يتعلق بالاحتمالين الأول والثاني ، اللذين ساقهما الباحث نرى أن عملية الخلق الفني أعقد من أن تخضع للتوجيهات العابرة ، التي تظل كما يعتقد الباحث ملازمة للبحثري حتى أواخر أيام حياته ، فيتذكر بعضها ، وينسى بعضها . ويضاف إلى ذلك أن الباحث يفترض قيام البحثري بإملاء الوصية في آخر عمره الطويل دون دليل .

أما الاحتمال الثالث ، فهو الاحتمال الأقرب للصواب . غير أن

الباحث لم يرجحه ، ولو فعل لانتفى مسوغ جعله الوصية أحد مصادر نقد أبي تمام

الوصية وعمود الشعر :

والذي نراه ان الوصية تدور في فلك قواعد عمود الشعر . ولعلها انتحلت من قبل المحافظين لتوكيد أهمية الالتزام بـ " طريقة العرب " أو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بـ " عمود الشعر " .

أما قضية عمود الشعر بعامة فيبدو انها كانت واجهة فنية لصراع فكري بين انصار التجديد من جهة والمحافظين من جهة أخرى . وقد اتخذ المحافظون من البحثري نموذجاً لتمثيل طريقة العرب أو الالتزام بعمود الشعر . على حين وقف المجددون خلف أبي تمام . المتهم من قبل المحافظين بالخروج على عمود الشعر .

ولعل بلورة تلك النظرية في مجال الشعر ونقده ، وغيرها من النظريات المحافظة في المجالات الأخرى مما يكشف عن الرغبة في توكيد الذات العربية في وجه ما كان يظن أنه يتهدها من ازدياد المؤثرات الأجنبية^(١) .

لقد بدأت نظرية عمود الشعر عند الأمدي بشروط متشددة ، وكأنها تستهدف فن أبي تمام ، وجرأته في الخروج على المؤلف أحياناً . ويتضح ذلك في قول الأمدي " وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة - يقصد طريقة العرب - وكانت عباراته مقصرة عنها ، ولسانه غير مدرك لها . حتى يعتمد المعاني من فلسفة يونان ، أو حكمة الهند .

أو أدب الفرس، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسيج مضطرب، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف، وسليم النظر، قلنا له : قد جنت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة. فإن شئت دعوناك حكيما، أو سميناك فيلسوفا، ولكن لا نسميك شاعرا، ولا ندعوك بليغا، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذهبهم^(١١).

ثم أصبحت النظرية أكثر مرونة عند القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، الذي افتتح كلامه عن عمود الشعر بقوله : " وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السيق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر. ولمن كثرت سوانر أمثاله وشوارد أبياته.. الخ "^(١٢).

وقوله إنما تفاضل، فيه احتراز واعتدال في الحكم، يعطي الشعر الذي يلتزم عمود الشعر الفضل، ولكنه لا يسقط سواء ولا يستهجنه - كما فعل الآمدي - ولعل الجرجاني، وهو يتناول شروط عمود الشعر في وساطته بين المتنبي وخصومه يقصد - في جملة ما يقصد - إلى توكيد براءة صاحبه المتنبي من مخالفتها^(١٣).

وجاء المرزوقي، نصير أبي تمام^(١٤)، فاستقرت نظرية عمود الشعر على يديه مرنة، واسعة الإهاب، بحيث جاز أن يعد أبو تمام نفسه ممن لم يخالفوا كل شروطها في كل ما نظم. على الرغم من وقوفه في طليعة المجددين.

فقد قال في بداية عرضه لشروط عمود الشعر " انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته... " وبعد أن عدد معاييرهم قال " فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحققها ، وبنى شعره عليها

فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان^(١٥).

فالأمر هاهنا (محاولة) من الشعراء للالتزام بالشروط والقواعد التي يراها العرب لازمة لجودة الشعر من شرف المعنى وصحته.. إلخ فبمقدار التوفيق في محاولة التقيد بتلك الشروط يكون الإحسان، بل التفوق . بحيث يعد الشاعر مفلقاً. ولذلك أكد هذا المعنى بقوله "ومن لم يجمعها كلها، فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان". وإذن فليس شرطاً أن يلتزم الشاعر كل الشروط التي ذكرها المرزوقي. وتقصيره في بعضها لا ينفي عنه صفة الإحسان. بل يضعف وصفه بأنه مفلق معظم ومحسن مقدم. وهذا الثغرة التي فتحها المرزوقي في تعريفه تتيح لأبي تمام أن يكون ضمن ملتزمين بعمود الشعر . أو بعض شروطه في بعض ما نظم . على أقل تقدير^(١٦).

إن الغرض من تفصيل القول في تطور مفهوم عمود الشعر وشروطه هو إلقاء الضوء على واجهة من واجهات الصراع الفكري بين المحافظين ودعاة التجديد، وكيف أن المحافظين حاولوا صد تيار التجديد. ولكنهم لم يتمكنوا. فاضطروا إلى التراجع عن تشددهم، والتسامح في قبول بعض ما لم يكونوا يقبلون به من قبل، وذلك ما يعلن تطور مفهوم عمود الشعر . الذي بدأ عند الأموي بشروط متشددة، واستقر عند المرزوقي بصورته البعيدة عن التشدد.

وبعد، فإن الوصية المنسوبة إلى أبي تمام، الدائرة في فلك عمود الشعر، لا ينبغي لها أن تفهم بمعزل عن دائرة الصراع الفكري، الذي كانت تموج به الحاضرة العباسية. أما أخذها على ظاهرها، وعدها مبنية وموضحة لآراء أبي تمام النقدية الصريحة ففيه الكثير من التبسيط للواقع أو المناخ الفكري الذي أنتجت في سياقه.

ولم يكن الهدف من محاوره الأستاذ الباحث نفى صدور الوصية عن أبي تمام، وإن قاد الحوار إلى تلك النتيجة، ولكن الهدف الأساس هو الدعوة إلى التآني في قراءة النصوص التراثية، وتمحيصها، والنظر إليها في ضوء مجمل الظروف التي كانت ملازمة لانتاجها.

الهوامش والحواشي

- ١ - الاصبهاني - الاغانى - ساسي ١٦٩/١٨ .
- ٢ - المصدر السابق ١٦٩/١٨ .
- ٣ - المصدر السابق ١٦٩/١٨ - ١٧٠ .
- ٤ - انظر الصولي - اخبار البحثري - ط٧ - تحقيق د. صالح الأشر. ص ٥٥ - ٥٦ - ٦٣ - ٦٤ .
- ٥ - ديوان البحثري - تحقيق حسن كامل الصيرفي ٩٦٠ - ٩٦٠/٢ .
- ٦ - الامدى - الموازنة - تحقيق السيد احمد صقر - ٧/١ .
- ٧ - اخبار البحثري - ص ٧ .
- ٨ - المصدر السابق - ص ٦٩ .
- ٩ - انظر نص الوصية - ابن رشيقي - المعدة - ط٤ - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ١١٥ - ١١٤/٢ . الحصري - زهر الاداب ط٤ - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ١٥٢/١ .
- ١٠ - انظر د. خليفة الوقيان - شعر البحثري - دراسة فنية ص ٣٢٠ .
- ١١ - الموازنة ١٢٤/١ - ١٢٥ .
- ١٢ - الجرجاني على بن عبدالعزيز - الوساطة بين المتنبي وخصومه - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد الجياوي ٣٣ - ٣٤ .
- ١٣ - انظر : شعر البحثري - دراسة فنية - ص ٣١٨ .
- ١٤ - الف الموزوقي رسالة في الاختصار لأبي تمام - وقد أشار إليها في شرح ديوان الحماسة ١٦٢٠/٤ .
- ١٥ - الموزوقي - شرح ديوان الحماسة لأبي تمام - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ١١/١ .
- ١٦ - شعر البحثري - دراسة فنية - ص ٣١٩ .

